ANCORA IMPARO

العصور

السنة الرابعة

ديسمبر ١٩٢٩ اعرف نفسك بنفسك: فيثاغورس مجلد العدد ٢٨

بين الدين والعلم

بحث فى تاريخ الصراع بينهما فى العصور الوسطى أزاء علوم الفلك والجغرافية والنشوء

مقدمة كتاب سيصدر عن دار العصور فى منتصف ديسمبر المقبل فى نيف وثلاثمائة صفحة مترجمة عن العلامة « جون ديكسون وايت » المؤلف الحجة فى هذا الموضوع بقلم اسماعيل مظهر محرر مجلة العصور .

« إنما نستنشق من الهواء بلا كد ، تلك الأفكار التى تحطمت فى سبيلها القلوب الكبيرة » لوويل

* * *

« الحقيقة بنت الزمان » باكون

* * *

« وتعرفون الحق والحق يحرركم »
القديس يوحنا : اصحاح ٨ : ٣٢

بين الدين والعلم

العداء بين اللاهوت والعلم لا بين الدين والعلم — العلم موضوعى والدين ذاتى

مقدمة بقلم المترجم

١ — تمهيد

كثر ما علت الصيحة فى هذه الأيام أن بين الدين والعلم عداء وأن فى طبيعة الدين شيئاً يعاند طبيعة العلم أو بالعكس . والحقيقة أن هذا القول له مبرراته القديمة والحديثة . وله فوق ذلك وقائع يذكرها التاريخ ووقائع تقع تحت أعيننا . غير أن مجرد القول بأن بين الدين والعلم عداء وصراعاً ، ومجرد رواية الوقائع التاريخية أو حدوث وقائع فى زماننا هذا تؤيد ما يرويه التاريخ ، ليست بدليل قاطع على أن فى طبيعة الدين شيئاً يعاند طبيعة العلم أو أن فى طبيعة العلم شيئاً يعاند طبيعة الدين . ولو أنك نظرت نظرة أولية فى حالات الحضارة الحديثة لوقعت لأول وهلة على أشياء تدلك على صحة ما نذهب اليه . فان العلم يجرى تياره بأقصى ما جرى تيار من التقدم فى كل العصور ، وتجد بجانبه روح الدين قائمة راسخة القواعد ، وانها لم تكن فى عصر من العصور الماضية بأكثر ثباتاً فى النفوس منها فى عصرنا هذا . نعم أننا لا ننكر أنه مرت على المدنية عصور خفت فيها صوت الدين ليعلو صوت المادية حينا ، ولكنا نجد مع هذا انه مهما خفت صوته فى الخارج فان ثباته فى النفوس لم يضعف ، وركيزته فى اليقين لم تهن

ولو صح أن بين الدين والعلم عداء وصراعا ، فكيف أن هذا الصراع الذى ظل قائما بينهما خمسة وعشرين قرناً من الزمان لم ينته بان يصرع أحدهما الآخر ؟ وهل خمسة وعشرون قرناً غير كافية لان تنهى المعركة وتنصر فريقاً ؟

الحقيقة أن الصراع ليس قائما بين العلم والدين . والحقيقة أن الدين والعلم كل منهما يستمد من ناحية من نواحى التكوين الفكرى فى الانسان . لهذا ظل الدين باقيا وظل العلم ثابتا . لان كلا منهما مظهر من مظاهر الفكر الانسانى . ولكن اذا اعتقدنا هذا فبأى شىء نعلل ذلك التاريخ الطويل الذى حاول فيه رؤساء الدين أن يخفتوا صوت العلم ، وبأى شىء سوف نعلل ذلك الصراع الذى سيحاول فيه رجال العلم أن يخفتوا صوت الدين فى المستقبل ؟

اذا اعتقدنا أن الصراع لم يقم بين الدين على اعتبار أنه شيء مستمد من طبيعة الانسان ، وبين العلم على اعتبار أنه شيء مستمد من القوة العاقلة التي خص بها الحيوان الناطق ، واعتقدنا أن الصراع قام في الواقع بين اللاهوت المذهبي وبين العلم ، استطعنا أن نعلل حوادث التاريخ بل استطعنا أن نظهر على شيء مما سوف يقع في المستقبل .

***

٢ ــ الجمود ضروري للاجتماع مفيد للحضارة

الجماعات تشعر ولا تفكر . بل قيل بان رقي الجماعات من حيث الشعور والتفكير يقاس في الحقيقة بنسبة أضعف فرد من أفرادها تفكيراً وأهوجها شعوراً مضروباً في عدد الجماعة . ولكن الناظرين في حالات الاجتماع نسوا أن يذكروا بجانب هذا أن الجماعات جامدة صرفة كما هي شاعرة صرفة ، وأن جمودها هذا ضروري للاحتفاظ بتوازن خطاها التي تخطوها نحو الارتقاء في كل ضروبه وعلى اختلاف ألوانه

مر على الناظرين في حالات الاجتماع عقود من السنين وهم يقولون بما قال جوستاف لوبون . ولم يمر بهم خاطر أن الجماعات كائنات جامدة بطيئة القبول لحالات التغير والنشوء . وإني لاثبت هنا أن أول من عثرت له على قول في هذا الموضوع الخطير هو العلامة كارل بيرسون الانجليزي اذ يقول :

«إن ما نجد في مباحث داروين من نفوذ البصيرة وقوة الادراك وما عقبها من مؤلفات سبنسر ، تلك المؤلفات التي هي على قوتها وبالغ أثرها سوف تكون أقل ثباتا وأسرع زوالا من مؤلفات داروين ، وما زودتنا به مبادىء النشوء في الحياة الفردية والاجتماعية قد اضطرتنا الى تعديل أفكارنا القديمة وتقويمها ، وأخذت تقوى من دعائم مثلنا الادبية وتوسع من ميدانها ، ولكن ببطء تدرجي . ولا يجب أن يحزننا هذا البطء ولا أن يئيسنا . لان من أقوى المؤثرات التي تحفظ الثبات الاجتماعي وتحول دون تخلخله ، تلك الصفة التي نبغضها ، صفة الجمود على القديم ، لا بل نقول بان العداء الصارخ الذي تقابل به الجماعات الانسانية كل الفكرات الجديدة ، لمن أخص تلك المؤثرات ، وان هذه الصفات هي بمثابة الكور المتلظية نيرانه ، والذي بدونه لا نستطيع أن نفصل بين المعدن الصحيح والفضلات الزائفة ، وهي التي تحمي الجسم الاجتماعي من أن يترك معرضا لتغيرات تجريبية فجائية ، قد تكون غير مفيدة آنا ، أو بالغة أقصى الضرر آنا آخر

والظاهر أن بين بناء العالم المادى وبين تكوين الجماعات الانسانية أوجها من التشابه تمثلها عناصر لازمة لحفظ النظام فى كليهما : ففى الجوهر الفرد كهارب ايجابية وأخرى سلبية ، وفى الدقائق المادية قوتا جذب ودفع . وفى الاجتماع تقدم وجمود ، وفى الحياة موت هو لزام لوجودها . وعلى هذا النمط نجد أن الصفات السلبية التى نبغضها فى المجتمع هى فى الواقع أشياء لازمة للمحافظة على كيانه باعتباره اجتماعا انسانيا تنعكس على صفحته صور الصفات الفردية والاجتماعية .

خذ بين يديك قطعة من المادة اللينة واضغطها فانها تأخذ شكلا ما ، ثم اضغطها ثانية فانها تتبدل من شكلها الاول شكلا آخر . وهكذا فان كل ضغطة تصورها فى صورة جديدة . وتمثل بعد هذا أن المجتمع الانسانى فيه من صفات الليونة ما فى هذه المادة ، وانه فقد كل صفات الجمود والمحافظة على القديم ، ألست ترى أن ذلك يكون منتجا لفوضى عظيمة فى نظام الاشياء الانسانية . وان تقبل كل جديد ليهدم ماقبله ، وليهدمه مابعده ، يكون فى هذه الحالة افسادا لبناء المجتمع وتحطيما للنظامات التى تقوم عليها المدنية ؟

عدد من مذاهب الفلسفة العملية ما شئت أن تعدد ، وارجع الى مذهب سقراط ثم الكلبيين ثم السيرينين ثم الى مذهب الابيقوريين ثم الى الرواقيين ؛ واعدل عن هذا الى تضارب جهات الفكر والمعتقد ، وتصور بعد هذا أن المجتمع الانسانى كان فيه من الصفات ماتحتمل تقبل كل هذا ثم رفضه على تالى الاجيال وعلى تقارب الفترات التى كانت تظهر فيها المذاهب والآراء الفلسفية واحدا تلو الآخر ، فهل كنت تجد فى بناء المجتمع ماتجد فيه الآن من الثبات ؟ وهل كنت تجد أن للحق ماله الآن من صفات البقاء والخلود ؟

وكذلك تجد الحال فى السياسة والدين واللغة وفى كل ماتقوم عليه الحضارة من الصفات الاجتماعية . وعلى هذا تجد أن التقدم والارتقاء قوة ايجابية تعضدها ، وان كانت تقاومها ، قوة سلبية هى الجمود والمحافظة على القديم ، كما لو كان المجتمع الانسانى دقيقة من المادة تجذب جواهرها بعضها بعضا ، فى حين أنها تتدافع . وهذا لزام لبقائها دقيقة مادية خالدة ، كما أن الارتقاء والجمود صفتان لازمتان لبقاء المجتمع الانسانى مجتمعا مستكملا لصفات النشوء والارتقاء .

لهذا لا يجب أن ننظر فى الجامدين نظرة من يعتقد أنهم رجعيون ، لان الرجعى هو الذى ينكص الى الخطأ على الرغم من أنه يعلم أنه سائر فى سبيل الحق والصواب . أما الجامدون فهم القوة السلبية التى تحفظ على الجماعات نصيبها من التوازن اللازم لثباتها ، وخطوها نحو الارتقاء فى خطاً متعادلة بطيئة ، ولكنها تدرجية .

* * *

٣ ــ مافوق العقل والعقل

بدأ الفيلسوف هربرت سبنسر كتابه مبادىء علم النظام الاجتماعى يبحث فى تطور مابعد الآليات ، فقال بان التطور على ثلاثة أوضاع . الاول التطور غير العضوى ، وهو يتناول بناء السماوات والسيار الارضى ، والثانى التطور العضوى وهو يتناول الظاهرات الطبيعية التى نشاهدها حشو الطبيعة الحية وتراكيبها من نبات وحيوان على اختلاف درجاتها ومراتبها ، ثم الظاهرات الخاصة التى تعرف فى مباحث العلوم بالظاهرات النفسية ــ البسيكولوجية ــ وهى التى تختص بها الصور الحية التى بلغت من الترقى حدا اصبح بطبيعة التطور مجالا لتلك الظاهرات . والثالث تطور ما بعد الآليات أو ما بعد العضويات وهو فى الواقع بلوغ الحالة الاجتماعية واقتسام العمل بين أفراد الجماعة .

فاذا أردنا أن ننظر فى هذا المبدأ نظرة تحليل نطبقها على موضوعنا هذا ، اعتقدنا أن تطور مابعد الآليات هى آخر الخطى النشوئية التى وصلت اليها جماعات الحيوان من الرقى . ولقد شاركها الانسان فى كل هذا وبلغ الى ارقى ما يمكن أن يبلغ حيوان من تطور ما بعد الآليات . فبماذا يمتاز على بقية الخلق ؟ يمتاز بانه يستمد مما بعد عقليته قوة تستعين بها على قوته العاقلة ليخضعها دائما لصالح الكل الاجتماعى

إن الفرد والجماعة لا يتفقان ، بل هما كائنان متضادان . ولكل منهما طبيعة تختلف عن طبيعة الآخر . يدلك على هذا أن العديد الاكبر من الافراد التى تعيش فى زمان ما ، لا تعير تطور الجماعة التى تلحق بها شيئاً من الانتباه لمظاهرها ولا تحاول أن تصرفها الى طريق الخير والسلام . فالفرد يتطور بتطور الجماعة ، خضوعا لروحها ، من غير أن يدرك من هذا التطور ، حين وقوعه ، شيئا . والجماعة ذاتها تساق الى التطور

من غير ان تحس بشيء منه ، حتى يظهر الزمان فرقا بين حالة الجماعة فى زمانين مختلفين تدر كهالاجيال المستقبلة .

وخضوع الفرد لشعور الجماعة يبعده عن عقليته المستقلة . فيجرفه تيار الشعور العام الى حيث يراد به ، الى الخطأ أو الى الصواب ، الى الشر أو الى الخير ، حسب المتجه الذى يملك شعور الكل الاجتماعي . والشجار القائم بين شعور الجماعة وعقلية الافراد كون التاريخ الانسانى برمته . فما من حادث من حوادث الحروب ، أو مظهر من مظاهر الثورات الاجتماعية ، أو قيام المدنيات المختلفة ، الا وتجد تلك الروح متجلية فيه تسوق امامها الانسانية سوقا الى حيث يريد بها مقدار ما أثر فيها شعور بكارثة قومية أو احساس بمزة النفس أو خيال الدفاع عن شيء اكثر ما كان موهوما لا واقعا بالفعل .

ولكن باى شيء استطاع الانسان أن يحتفظ بخضوع عقلية الفرد لشعور الجماعة ؟ هنالك فى معتقداته الدينية وجد الانسان القوة التى استقوى بها على عقليته الفردية فاخضعها لقوة احساسه بالشريعة الادبية . أما وظيفة تلك المعتقدات فتجهيزها الفرد بقوة نفسية تسوقه الى الخضوع لمجموعة من آداب السلوك ومبادىء من الاخلاق تبقى عقليته واقعة تحت الاحساس بواجباته الادبية ، أى انها تخضع العقلية الانسانية لقوة مستمدة مما بعد العقلية . وتلك ظاهرة لازمت قيام المدنيات فى كل عصر من عصور التاريخ .

يقول الاستاذ بنيامين كيد صاحب كتاب التطور الاجتماعي المعروف :

« ان الروح الحربية التى تملكت زمام المدنية فى عصور الوثنية هي التى شكلت تاريخ الغرب برمته ، فخرجت الشعوب الغربية من تلك المعامع : معامع التدمير والتخريب ، بمدينة هي أغرب ماوصل اليه الانسان فى تاريخ الدنيا . وما من تاج من ثمار هذه المدنية ، وما من نظام من نظاماتها الاجتماعية أو شكل من أشكالها ، ألا وتجد للروح القديم أثرا فيه كبيرا . يرجع ذلك إلى اعتقاد ثابت راسخ فى روع الشعوب منذ نشأتها لحمته أن حيازة القوة والانتفاع بثمراتها هو المبدأ الذى يجب أن تعمد اليه الامم اذاماشاءت أنه تحتفظ بكيانها . غير أن هذا الكائن الناطق الذى خرج من

جوف الازمان الأولى وبيده آلات الحرب والتخريب ، كان ذا عقيدة دينية . عقيدة تخالف فى أسسها ومبعثها الذى ترتكز عليه فى طبيعة الرغبات الانسانية ، نزعته الى القوة من أية طريق أتاها وبأية من الوسائل التى تذرع اليها . وظلت نزعة الانسان الى القوة تحارب تلك العقيدة الموروثة حربا عوانا تشهرها على ذلك المعتقد نزعات الانسان وبواعث انفعالاته طوال القرون الاولى . ولا يزال الشجار قائما حتى الآن . وانك ان قلبت تاريخ الانسان لتجلى لك مقدار ماجالد ذلك الحيوان الناطق المفكر فى سبيل التخلص من قيود تلك الوراثة الدينية التى خرج بها من حياته الاولى مستعينا بها على هدم ذلك المعتقد بكل ماأوتى من قوة الفلسفة والعقل ، فكم زجت تلك النزعة بالانسان فى غمرات حروب تهدم بها ماأقام السلم من صروح العمران ، ولم تمزق بها مارأبت شريعة الآداب من صدوع الانسانية »

تلك روح خالدة فى الجماعات قد تتغير مظاهرها ، وجوهرها ثابت فى الزمان ، مرتكز على طبيعة الانسان المفكر المعتقد المدرك لحقيقة الشريعة الادبية ، المحكوم بوازع مما فوق عقليته يخضع عقله لحاجات الاجتماع . تلك الصفات التى ترتكز عليها أصول المدنية .

عبثا ماحاول بعض الفلاسفة أن يقاوموا تلك الروح بمذهب فلسفى فى النفعية ، يستغوى الفرد ليخرج عن شعور الجماعة وروحها . كثر فى أوروبا من حاول ذلك فى أواخر القرن الفارط ، ونشر بعض المشتغلين بالآداب كتبا فى «دين الطبيعة» مالبثت أن قتلتها روح الجماعات بشأنها فى كل شىء يصد طريقها الشعورى الصرف . حاول هؤلاء أن يجعلوا العقل حد الدين ، فوقع الانسان فى مأزق من مآزق البعد عن الشريعة الادبية كاد يتداعى معه أساس المدنية . ولا يزال بعض المفكرين يتابعون ذلك الرأى ، قائلين بأن دين المستقبل سوف يكون معتقدا بعيدا عما تبعثه فى أهل هذا العصر معتقدات مابعد العقلية البشرية . حاول هؤلاء أن يجدوا فى عقل الانسان وحده هاديا ومرشدا أمينا بصفته فردا صالحا من مجموع انسانى ، يختط له خطة من السلوك والاخلاق جديرة بأن تحفظ نظام الهيئة البشرية التى يجب أن تقوم على أساس من الاحساس الادبى . أخفقوا سعيا وضلوا سبيلا . لان الطبيعة لم تحب الانسان بشىء من هذا . رجع الناس بعد ذلك مؤمنين بأن وازع مابعد العقلية ، أول عنصر من عناصر المعتقد الدينى

بل نواته ، وأنه الضابط الذى يضبط علاقة الفرد بالجماعة فى كل حالة من الحالات وتحت تأثير أى ظرف من الظروف

على أنك تجد أن فى النظام الاجتماعى قوتين متضادتين تتنازعان بقاءه : قوة مفرقة ، وقوة مؤلفة . فالقوة المفرقة يمثلها عقل الفرد الانانى المحب لذاته والقوة المؤلفة يمثلها معتقد دينى يستمد مما فوق عقلية الفرد . وتنحصر وظيفته فى أن يحتفظ فى تطور الجماعات باخضاع مصالح الافراد ومطامعهم لصالح الكل الاجتماعى ، وأن الدين فى طبيعته ضرب من ضروب المعتقد يهيىء الانسان بوازع مما فوق عقليته يضبط سلوكه نحو المجموع .

فاذا أيقنا بعد كل هذا ان الانسان كائن معتقد كما هو مجتمع ، وأن الدين من بين كل معتقداته هو الذى يهيئه بوازع ما فوق عقليته ، استطعنا أن ندرك كيف أن الخصومة الموهومة بين الدين والعلم مستحيلة ، والا فلو كان بين الدين والعلم خصومة وعداء ، لتحطمت قواعد العلم قبل أن يهتز ركن واحد من أركان الدين .

الدين فى النفس الانسانية ثابت لا تتغير ماهيته وان تغيرت مظاهره . وهو فوق ذلك صفة غريزية تلازم طبيعة الانسان مادام قد تكون ليكون انسانا فيه من التكوين الطبيعى ما يجعل للدين ركيزة أثبت فى نفسه من ركيزة العلم والفلسفة . وعلى هذا لا يمكن أن يكون بين الدين والعلم تجالد وصراع ، لانهما على الرغم من الفوارق الطبيعية الكائنة بينهما والتى لا تجعل للصراع بينهما مجالا . يستمدان من ناحيتين متباعدتين من نواحى التكوين الانسانى

٤ — الفرق بين العلم والفلسفة والدين

ضرورات الحالة الاجتماعية كثيرة متباينة ، وهى على كثرتها وتباينها بل وان شئت فقل تناظرها ، انما تستمد من طبيعة الكائن المجتمع وليس من هذه الضرورات ما ينزل عن حد الضرورة ليكون أكثر ضرورة أو أقل ضرورة من غيره . وليس منها ما هو أقرب الى الكماليات من الحاجيات ، فان هذه الضرورات كلها تنزل منزلة واحدة من حاجة المجتمع اليها .

وهى فوق ذلك مستمدة من صفات غريزية فى الكائن المجتمع تتشكل فى صور

مختلفة بمقتضى اجتماعه ليكون كلا اجتماعيا ، أو كائنا اجتماعيا كما يقول سبنسر . ومن أول هذه الضرورات أن يكون فى الانسان صفات نفسية وأخرى عقلية . وهذه الصفات ، بصرف النظر عن مظاهرها الخارجية وباعتبار أنها أشياء كائنة فى تضاعيف الفطرة ، لايمكن أن يكون بين ماتنتج تضارب وتجالد ، أوعداء وصراع . قد يكون بين بعض ما تنتج من الحالات الاجتماعية جمود ، يناظره فى أخرى نزعة الى التقدم والارتقاء . وقد يكون فى ناحية منها حركة ، فى حين أن ناحية أخرى تتطلب الهوادة والسكون النسبي لتتعادل الكفة ويحدث الثبات الاجتماعى الذى هو أول صفة من الصفات المطلوبة فى جماعة انسانية يصح أن يقال فيها انها متحضرة ، وأنها تقيم عمرانا .

فالعلم مثلا صفة عقلية أصبحت الآن ضرورة من ضرورات المجتمع الحديث وان كان العقل وهو نبعها الفياض ، صفة من الصفات الاصيلة فى حياة الانسان الاجتماعية ، بل وفى غيره من كثير من الحيوانات الاخرى . وكذلك الدين فهو صفة تستمد مما فوق العقلية البشرية ليسد فراغا فى الاجتماع لايسده العلم . وبين العلم والدين فجوة لا تسدها الا الفلسفة : فهذه الدرجات الثلاث أو هذه الصفات الثلاث : صفة أن الانسان يعلم ، وصفة أنه يتدين ، وصفة أنه يتفلسف ليوفق بين طرفى العقل وما بعد العقل ، صفات فطرية فى الانسان أصبحت بطبيعته ضرورات اجتماعية ، ولايمكن أن يكون بين شىء منها عداء وصراع ، وإلا أصبح الانسان عبارة عن مجموعة صفات متناقضة وهيكل من القوضى المتحركة . هى فى الواقع متناسقة متكاملة كالقضية المنطقية التى تتكون من طرفين ووسط . موضوع ومحمول وحد وسط . وهى فوق ذلك لاتنتج انتاجا صحيحاً الا إذا صحت مقدماتها . هذا مثل الانسان فى العلم والفلسفة والدين . وكلها ضرورات لابد منها ، وان استمدت من نواح مختلفة من نواحى الفطرة الانسانية . هي ضرورات اجتماعية من ناحية أن الانسان مجتمع ، وضرورات فطرية من ناحية أن الانسان كون على ما فيه غير مخير هواه

على أننا لا نترك الموضوع عند هذا الحد فلابد من أن نظهر أن هذه المنتجات لا تتخالط مطلقا و بذلك لاتتعادى ولا تتصارع

يقال ان العلم ذو صفات ثلاث، يقال انه تام ، ايجابى ، موضوعى ، وأن الفرق بينه وبين صور الفكر الاخرى أن هذه غير تامة ، مبهمة ، ذاتية . إن العلم يؤدى للعقل

نواتجه أو فكراته فى اصطلاحات محدودة بالتعريف ، مباشرة المعنى ، بينما تجد أن هنالك عالما فى الادب والنواتج العقلية غير محدود بالتعريف ، ومزى فى قوامه ، غير مباشر المعنى والتعبير . إن العلم يسلم بأن ليس له من دعامة الادعامة المعرفة ، على أن تكون بينة جلية تامة الوضع . لهذا تجده مناظرا فى طبيعته لنواحى الفكر الاخرى المرتكزة على الآراء والاعتقاد والايمان . ولا يغيب عنا أن هذه المصطلحات اما أن تشير إلى الاسلوب الذى ينتحى فى البحث و اما أن تشير الى موضوع البحث ذاته . أما العلم فيفخر بان له اسلوبا ثابتا لايحتمل الجدل ولا يسع التورط فى المسائل الخلافية النظرية أما بقية فروع الفكر فاما أن تستعير أساليبها من الاسلوب العلمى و إما أن تطبق أساليب متغايرة لم يجمع عليها الاجماع كله ، و إما أن تأبى الخضوع لاسلوب ما على وجه عام (١) فالعلم يتناول كل الاشياء أو الموضوعات التى تطرأ على أذهان السواد الاعظم من الناس أو تمس مصالحهم وهى موضوعات قد يبلغ الى الاحاطة بها كثير من الناس. ولهذا يفخر العلم دائما بان مشاهداته واستنتاجاته خاضعة دائما للتحقيق والبحث آنا بعد آن . لذلك تجد أن شطرا عظيما من المشاهدات والاستنتاجات العلمية قد تؤخذ فى أكثر الاحيان على انها حقائق تامة أجمع على صحتها وثباتها، فيمضى الذين لا يأنسون من أنفسهم القدرة على تمحيصها و بحثها ، أو الذين تقعد بهم الهمة ، دون فحص براهينها، قانعين بانها أشياء بديهية ثابتة لامبدل لها . غير أن هنالك أشياء كثيرة تقوم فى عقل كل فرد من الافراد ، شخصية فى طبيعتها ذاتية فى مبعثها ، ولهذه الاشياء فى أنفسنا من الشأن والخطر ما يجعلها من مطالب الحياة وحاجاتها . وأن هذه الأشياء هى المادة الحقيقية التى يتركب منها الفكر الخارج عن ميدان العلم. وهى فى جوهرها ومظهرها مناظرة للعلم اليقينى . وفى هذا الشطر من الفكر لا يستطيع شخص بذاته أن يقوم بعمل ينتفع به الكثيرون على نفس الطريقة التى تحتذى فى العلم . فالاخذ بالبرهان فى ذلك الشطر مستحيل ، والاجماع على شىء فيه لايضم تحت لوائه الا عددا قليلا من الناس . فالأقوال والنظريات لايمكن أن تأخذ فى هذا الشطر على انها حقائق ضرورية لاتحتمل الجدل ، كما هى الحال فى العلم ، بل أن كل شخص لابد من أن يجتاز فيها السبيل

---

(١) راجع الاستاذ جون تيودور مرتز فى تاريخ الفكر الاوربى فى القرن التاسع عشر

الذى اجتازه الذين تقدموه ، قبل أن يأنس فى نفسه القدرة على قبول ما القى اليه والانتفاع بثمراته

إن الصفة الوحيدة التى تلازم هذا الشطر من الفكر انه فردى ذاتى ، فى حين أن العلم مهما كانت صبغته ومهما كان أصله ، عام موضوعى ، أى أنه غير ذاتى . يرجع الى الموضوع . لا الى الذات التى تفكر فى الموضوع وتفحص عنه . فاذا مثلت للفكر بشىء ذى طرفين متناظرين ألفيت أن العلم الرياضى فى أحد طرفى الفكر وان الدين فى الطرف الآخر . وأنك لتجد أن الاتفاق فى الطرف الاول صفة ملازمة ، كالاختلاف والتنابذ فى الطرف الثانى . تلحظ أن وحدة الفكر صفة ثابتة فى الطرف الاول ، فى حين أنك لن تقع لها على ظل فى الطرف الثانى . انها لم تعرف فى الدين ولن تعرف . وانك اذا أردت أن تعبر عن ذلك بالكلام الدارج استطعت أن تقول إن المعرفة والتحقيق لزام الاول ، وأن الايمان والاعتقاد لزام الثانى . على انك فيما بين الطرفين تقع على فراغ كبير يفصل بينهما . إن هذا الفراغ ينشىء فى الفكر صورا تصل بين الطرفين فتبرز حينا فى هيكل من المعرفة ، وحيناً فى مثال من الايمان ، فيختلط فيها قليل من الاشياء المحققة بكثير من الايمان والاعتقاد المبهم . تلك المسافة الكبيرة ، وهذه المفازة المترامية الاطراف ، والتى تتوارد عليها صور التغير والاختلاف سريعة متعاقبة ، هى سكن الفلسفة الحقيقى ومنبتها الاصلى . الفلسفة التى تتناول الحقائق ولا تأنف من الايمان ، الفلسفة أصل المعرفة ، ومصدر الاعتقاد واليقين . الفلسفة حلقة الوصل الواقعة بين الطرفين : طرف العلم وطرف الدين . (١)

بعد هذا التحليل الدقيق نتساءل . هل يمكن للانسان أن يكون بلا عقل ليكون بلا علم ؟ وهل يمكن أن يكون بلا وازع من فوق عقليته ليكون بلا دين ؟ وهل يمكن أن يكون بلا تأمل فى الناحيتين ليكون بلا فلسفة ؟ هذا مستحيل . مستحيل على الانسان أن يلغى عقله ، أو يلغى وازع مافوق عقليته ، أو يلغى تأمله فى حقائق الاشياء .

ثم نتساءل ثانية هل يمكن أن يقوم بين هذه الضرورات العقلية والنفسية صراع وتجالد ، بحيث يمكن أن يقوم بجانب هذا الصراع الشديد حياة اجتماعية لا تجرى فيها الدماء ، ولا يعبث فيها بأخص الصفات الانسانية ؟ أما دليلنا الملموس على ان الصراع

---

(١) راجع كتاب نزعة الفكر الاوروبى فى القرن التاسع عشر

بين الدين والعلم شيء موهوم ، فبقاء بناء الاجتماع الانسانى بما فيه من مختلف الصور الناتجة عن العقل والشعور ، وثباته و بعده عن التناقض والانشعاب .

٥ ــ الصراع بين اللاهوت والعلم لا بين الدين والعلم

اذا صح لدينا أن لا نزاع بين الدين والعلم فما هو السبب اذن فى تلك الفجائع التى يرويها التاريخ خلال القرون الوسطى ، بل وفى الازمان القديمة ، وما هو الباحث على تلك الحروب التى قامت بين العلماء والفلاسفة من ناحية ، و بين من تسميهم رؤساء الدين من ناحية أخرى ؟

اذا كانت حقائق التحليل النفسى والعقلى تدلنا على أنه لا يمكن أن يقوم صراع بين الدين والعلم ، لان هذا مستحيل فطرة واجماعا ، وقفنا أمام وقائع التاريخ ، وعلى الاخص ، تاريخ النشوء العقلى والفكرى ، نتلمس أسبابا نعزو اليها البواعث التى كونت تلك العناصر التي انطوت عليها صفحات الماضى وكانت سبباً فى تكوين محاكم التفتيش فى القرون الوسطى لتحرق وتقتل تحت عنوان الهرطقة والخروج على الدين كل من نزع الى جديد فى العلم وكل من كشف عن حقيقة من حقائق الطبيعة

لم تبلغ الخصومة بين العلم واللاهوت من الشدة مابلغت فى القرون الوسطى وبين أحضان النصرانية . فانك لا تعثر فى تاريخ الاديان كلها على تاريخ يشابه تاريخ مذاهب اللاهوت النصرانى فى قيامها فى وجه العلم أزمانا طوالا ، بل قرونا متعاقبة . والسبب فى هذا أنه قامت لدى اللاهوتيين فكرة ثابتة فى أن العلم لا يجب مطلقا أن يبشر بشيء فيه أقل مخالفة لظاهر ماجاءت به الاسفار المقدسة والمتون ورسائل الحواريين . ولست تعلم لماذا يكون هذا لزاما على العلماء والفلاسفة ، مع أن طبيعة الدين لا تسع هذا ولا تدعو اليه . فان وظيفة الدين فى الواقع اجتماعية ارشاديه ، لا تعليمية . ولكن شاءت عقول اللاهوتيين أن تكون وظيفته تعليمية . لهذا نشأ مايسمونه الخصومة بين الدين والعلم ، وما هى فى الواقع الا خصومة بين اللاهوت والعلم . وكم من لاهوتى ظهر خلال القرون الوسطى وحاول ان يثبت ان الدين لا شأن له بالعلم وان وظيفته تنحصر فى أن يعرف الناس طريقة الخلاص فى الآخرة ، لا حركات الاجرام السماوية أو تكوين الارض كيف يكون ! ! ولكن المذاهب الشائعة فى اللاهوت ، ومن ورائها محاكم التفتيش ، لم تكن تترك لامثال هؤلاء مجالا . وزاد الطين بلة ان اللاهوتيين ومن

ورائهم الكنيسة ، وعلى رأسها البابوات المعصومون عن الخطأ كانت قد زكت المذاهب اللاهوتية التي ذاعت فى تفسير الانجيل والتوراة باجازتها حينا بعد حين، فأصبحت تلك التفاسير فى الواقع مقدسة كاصل المتون نفسها. لهذا كانت ثورة اللاهوت فى القرون الوسطى حامية ونارها محرقة تلظي .

° ° °

٦ — هل بين الدين والعلم عداء حقيقى أو مجازى

يخيل الى الذين يقولون بأن بين الدين والعلم عداء ، وان بينهما صراعاً وجلاداً يقوم على شيء فى طبيعة الدين يعاند طبيعة العلم ، أو أن فى طبيعة العلم شيئاً يعاند طبيعة الدين ، أن الانسان عبارة عن كائن كل مافيه عقل صرف وتفكير محض فى حين أن ما كشف عنه علم الاجتماع الانسانى مؤيداً بمباحث العلماء الاعلام فى فروع علم البسيكولوجيا ، قد أثبت بما لاسبيل الى ادحاضه أن الانسان عبارة عن مجموعة مشاعر حادة قوية تزكيها نزعة غريزية مما فوق العقل تحكم رابطته بما نسميه الجماعة ، أو المجتمع البشرى .

يقول ديكارت « أنا أفكر انا اذن كائن » . والحقيقة أن الوجود والحياة أولى الحالات التى يقوم عليها أساس الجماعات فلنفكر قليلا فى حالة الحياة ذاتها وعلى الاخص فى الانسان المفكر المجتمع لنرى ان كان حبنا للحياة ذاتها شيء يقودنا اليه العقل أو الشعور والخضوع لما بعد العقلية

اذا وازن انسان بين ماينعم به فى هذه الحياة من سعادة وبين ماينزل به من ملمات فادحات ، فلا شك فى أن كفة آلامه ترجح كفة سعادته على حسب مايصور له عقله اضعافا . فان مطالب الحياة والسعى الجاد وراء ماتطلب من ضرورات لاتترك للفرد مجالا للمتعة بما يصور له عقله أنه متعة حقيقية . واذا نظر فيما يحيط به من الحالات الطبيعية الفى ان الطبيعة التى تحيط به والتى يعيش بين أحضانها خاضعاً لقواسرها انما تناهزه أشد العداء ، ويقابلها بأشد المقاومة . فهو فى الواقع فى حرب مستعرة مع العناصر التي تؤلف كيانه . فالجراثيم القاتلة والوحوش الضارية وتقلبات الطقس وتأثيرات المناخ والتناحر على الحياة والانتخاب الطبيعى وابقاء الاصلح بل وكل ماتتطلب نظامات الطبيعة من جهود يبذلها الانسان ليعيش ويحيا حياة طبيعية ، هى بذاتها متاعب

لاتجعل للحياة من قيمة حقيقية اذا نظر الانسان فيها بعين العقل وحده وجرد نفسه من نوازع مافوق عقليته . ثم فكر قليلا بعد هذا فى هذه الحياة وسائل نفسك لماذا وجدت ، ولاى غرض خلقت ، وما هو القصد من هذه الحياة التي أحياها ، ومن ذلك الموت الذى انا بالغه يوما من الايام ؟ وانظر بعد ذلك هل ترضى عن هذه الحياة وهل يكون وجودك فيها ممكناً ان تركت نزعات العقل تحتكم فيك وحدها ، أو ان لجأت اليها تلتمس هدايتها للخروج من هذه الظلمات .

ان العقل يوحى اليك بأن تفارق هذه الحياة فلافائدة منها ، وأنت فوق ذلك عاجز عن أن تعرف سر وجودك فيها ! انها عبث فى عبث وبدء ونهاية لاخلود وراءها ، ولا حياة أخرى تثاب فيها على طيباتك اوتعاقب فيها على سيئاتك . يهمس العقل فى روعك دائما بأن هذه الحياة التى تحياها وتلك المتاعب التى تتحملها والمشاق التى تذللها انما تعمل فيها لغيرك لانفسك وتتحمل كدورتها للاجيال المستقبلة التى ليس لك من علاقة بها ولا تعرف ان كانت تستحق منك ماتضحى به من صحة وعافية :

أليس هذا وحي العقل ؟ أليست هذه الاشياء هى أول مايوحى اليك به العقل الصرف المجرد عن المشاعر وقواسر مافوق العقلية ! إذن نستطيع أن نقول ان بين العقل والوجود كله صراعا بحكم أننا كائنات لانعرف لماذا وجدنا ولا نفقه لوجودنا غرضاً يختفى وراءه مظاهر هذه الحياة :

ثم ارجع بعد هذا الى نظام الزوجية ، وجرد نفسك من المشاعر برهة واحدة لتحكم العقل فى هذا النظام الذى لولاه لما كان للاجتماع الانسانى على مانراه اليوم من أثر

لماذا يقسر الرجل المرأة على أن تكون له وحده ولماذا تغار المرأة على الرجل ان هو جرى وراء أخرى ؟ ولاى شيء يحتمل الرجل والمرأة كلاهما تلك الواجبات ولماذا يلزمان تلك الحدود التى وضعتها الشرائع والقوانين وفى فناء الاباحة ماهو أرخى لعنانهما وأقرب لما يرضى نزعتهما العقلية . يسعى الرجل ويكد كل كد ليعول امرأة اراد ، ولا يعرف لماذا ، أن يختص بها وتختص به ، وأن يقوم حفيظا عليها زعيما بمطالبها فى الحياة . يحتمل مرارة العيش ويواجه مصاعب الحياة بلذاذة وصبر

فسبيلها وفى سبيل شىء لايعرفه . سائل نفسك لماذا أنت تخضع لنظام الزوجية ، ولماذا تجد فيه من السعادة مع مرارة السعي ، مالاتجد مع راحة العقل واطمئنانه الى حياة خلو من المسئوليات والواجبات . وانت لاتعرف ان كنت تعيش فى نظام اساسه العقل الصرف ام فى نظام لاتعرف فى الواقع لماذا تخضع له ان حكمت فيه العقل واردت ان تستوحيه ليهديك فى ظلمات ماأنت فيه من نظام ؟

ثم ارجع الى المرأة وحدها وتصور لهفة بنت حواء اذا نبذتها الطبيعة فى صحراء العقم وتركتها بلاعقب . وانظر كيف انها تغضب على الطبيعة وعلى الحياة وعلى الاحياء ، لان القدر شاءلها أن تكون عاقرا غير ولود .

وصور بجانب هذه الصفة المثالية متاعب المرأة فى تربية أولادها والقيام عليهم ، وماتعرض له حياتها من المخاطر فى الحمل والوضع ، وتصور كيف انها تنسى كل آلامها وتغيب عن عقلها كل متاعبها بمجرد ان تضم طفلها الى صدرها ضمة تفيض معها كل معانى الحياة ، لا كل حقائقها ، فتغمرها فى بحر لجى من المشاعر يموت معه العقل ويحيا الوجدان

ثم انظر فى حياة المرأة فى مفصلاتها . فانك تجد انها انما تعيش للمستقبل الصرف الذى لايغشاه من التطلع الى الحاضر غاشية . كل مافيها من مشاعر ، وكل ماتأتيه من أعمال ، وكل ماتحتمله من متاعب فى هذه الحياة انما تتوجه به شطر المستقبل والاجيال التى سوف يتمخض عنها القدر فى الايام الآتية . هذه هى أكبر فضائل المرأة الغريزية . تعيش لغيرها لا لنفسها . تعيش لرجلها ولاولادها وتضحى فى سبيلهم كل شىء تملكه أولاتملكه الا مجازا ، لتضع للمستقبل عمادا يقوم عليه ، وأساسا يرتفع من فوقه بناؤه المشمخر .

جرد المرأة من هذه المشاعر ، وخلص نفسيتها من قواسر مافوق العقلية التى تقوم عليها كل هذه الصفات ، وحكم العقل فيها وحده ، أو اجعلها تحكم العقل فى كل ماتعمل أوتأتى من أفعال ، وانظر بعد ذلك كيف يكون المجتمع اذا زادت فيه نزعات المرأة العقلية وكيف يتهدم الحب وتموت الشفقة . وتنتفى الرحمة . وكيف تندك الشرائع السماوية . وتتبدد سلطة القوانين الوضعية ؟ وماذا يبقى بعد كل هذا ؟ هل يبقى من المجتمع الانسانى عين أو أثر ؟

وهنا أيضاً نستطيع أن نقول بأن بين العقل و بين نظام الزوجية وتضحية المرأة نزاعاً وصراعاً وان بينهما جلاداً يجب أن تخضع فيه المشاعر لحكم العقل وحده ، كما تقول بأن بين الدين والعلم قتالا ، يجب أن يتغلب فيه العلم وليد العقل ، على الدين وليد المشاعر ونزعات مافوق العقلية فى الانسان

تامل فى نفسك ساعة وانظر فيما يحف بك من النظم الاجتماعية والقيود الثقيلة التى تربطك بالمجتمع الذى تعيش فيه ، والسلاسل والاغلال التى تثقل جيدك وتنقص ظهرك ، من واجبات نحو الأسرة والأب والأم والزوجة والوطن والدين والتقاليد وفكرات الشروف والعرض وما الى ذلك ، واستسلم الى العقل وحده وانزل على حكمه فى تلك الامور عامتها ، وجرد نفسك من المشاعر ان استطعت برهة واحدة ، فانك لا تلبث أن تجد عقلك وقد أخذ يحز خطاك الى التخلص من هذه القيود التى لن تجد من عقلك ما يسوغها أو ينزلها على حكم النفع المباشر . لماذا تعيش فى أسرة وتحمل نفسك من الاعباء ما تطيق وما لا تطيق ؟ ولماذا تحب اباك وتحترم واجبات الأمومة وتعطف عليها ، ولماذا تخضع لعيشة الزوجية و فى مقدورك أن تستعيض عنها بعيش أرغد فى نظر العقل واقرب الى مطالب الحياة الحرة المطلقة من قيود الواجبات الأدبية ؟ ولماذا تحتمل تربية أولادك وتحمل من اجلهم أمر مذاقات الحياة باصطبار وسعادة ؟ ولماذا تحب وطنك وتضحى فى سبيله نفسك ومالك، وتريق من اجله دمك وارض الله واسعة الفضاء؟ ولماذا تقيد نفسك بدين تخضع له وفى متسع الاباحة ماهو ارضى لعقلك وارحى لعنانك واوجب فى رضائك بالحياة ؟

هذه أسئلة يجيبك عليها الشعور جوابا لايرضاه العقل ، ولا تسكن اليه موحيات الانانية الرسيسة فى طبيعتك . انما الطبيعة قد خصت الانسان بشىء يمتلك ناصية عقله ويتحكم فيه التحكم كله . شىء آت مما فوق عقليته ينزل تلك المعانى من نفسه منزلة يخضع لها العقل قسراً عنه ، شىء يقال له الفكرة الدينية ، فيها من المشروعية المكتسبة بحكم الاجماع العام ما يخضع الفرد المجتمع بحكم المشاعر ، وتحد من شهوات الفرد المستقل الخاضع لحكم العقل . تلك هى وظيفة الدين الكبرى فى الاجتماع الانسانى(١)

---

(١) راجع كتاب ملقى السبيل الفصل السادس

هذه أمثال مقتضبة مما فى هذه الحياة من بواعث ما فوق العقلية لو اننا مضينا نضرب فيها الامثال اذن لملأنا صدر مجلد ضخم حتى نبلغ منها حداً يرضى نزعة البحث الصحيح . وما أتينا بهذه الامثال الا لنظهر انه كما أن العلم لم يصارع بقية مافى الحياة من بواعث مافوق العقلية الانسانية صراعاً واجههافيه بالذات ، كذلك هو لايصارع الدين وهو أخص مافى هذه الحياة من الالهامات العلوية التى تحكم فى مافوق العقل لا فى العقل نفسه .

انما يصارع العلم صور اللاهوت المذهبى . لان هذه الصور انما تريد أن تنزل بالدين الى أفق العلم.تريد أن تجعله ديناً وتجعله علماً وهنالك يقع الصراع بطبيعة الحال

لم يشرف القرن التاسع عشر على الختام حتى ودعه العلماء بعدة مستكشفات خطيرة فى الفوسيقى والكيمياء والتاريخ الطبيعى . غير أن أعظم استكشاف وصل اليه العقل البشرى خلال القرن التاسع عشر على معتقدى ، تيقن أهل العلم بأن للعلم حداً يقف عنده ، هنالك ترك العلم ادعاءه بحق التفرد بالوجود والتسلط وحده على كفايات العقل البشرى، اذ بان لاهله أن وظيفة العلم تنحصر فى وصف حقائق الاشياء هنالك نامت عاصفة العلم وانتصرت الطبيعة على نزعات الوهم السائدة فيها ، وهنالك تحددت المعارف الانسانية بحسب كفايات العقل الانسانى فترك للدين سلطانه وحدد للعلم حيزه

٧ — وظيفة الدين ارشادية لا تعليمية

لقد أبنا فى سياق هذا البحث أن العداء لايمكن أن يقع بين الدين والعلم بصورة مباشرة ، وأثبتنا فوق ذلك أن العداء لايقع الا بين صور اللاهوت المذهبى والعلم ، لاسباب هى فى الواقع ذاتية أكثر منها موضوعية. فان رجال اللاهوت عند ما أرادوا أن يفسروا نصوص الكتب المقدسة و يطبقوا هذه النصوص على الحقائق الكونية جنحوا فى الواقع الى فكرة أساسية كانت السبب الكلى فيما ترى من نتائج ذلك الصراع الذى قام بين معاهد الدين ورجال العلم . وكان أول ماذهبوا اليه وأدى الى هذه النتائج الخطيرة قولهم بأن نصوص الكتب المقدسة لاتقبل التأويل وانها إنما تزودنا بمعارف الدنيا كما تؤدى بنا الى الخلاص فى الآخرة وكان لهم فى ذلك مذاهب كثيرة أخصها مذاهبهم المعروفة فى علم الفلك والجغرافية والخلق وما الى ذلك

على أن جهلهم بحقائق التاريخ كان فى الواقع من أكبر الاسباب التى حدت بهم الى الاستمساك بمثل هذه الآراء والوقوف فى مثل تلك المواقف الحرجة التى كان من

شانها أن تذيع فى بعض العصور مذاهب بلغت من التطرف فى الالحاد أقصى الحدود. فانهم لم يعرفوا مثلا ان أكثر ماجاءت به الكتب المقدسة وأكثر التفاسير التى فسرت بها تلك الكتب انما استمدت من أساطير وخرافات ذاعت بين أمم العالم القديم ، فى مصر والهند وأشورية وبابل والكلدان ، وان هذه التصورات الفرضية قد نماها الزمان وانتقلت باللقاح من جيل الى جيل ومن أمة الى امة حتى أسلمت بها تطورات الاجتماع الى العصور الحديثة محيكة فى صورة كتب مقدسة هى فى الواقع ليست من الدين ولكنها مظهر من مظاهره

لهذا لانريد أن نتابع الكلام فى وظيفة الدين باطناب . لان مجال الكلام فى هذا واسع كبير . وجل مانرمى اليه من هذه العجالة يتلخص فى شىء واحد هو الاعتقاد بان وظيفة الدين ارشادية لاتعليمية . لأن القول بان وظيفته تعليمية قد يجر الى البحث فى أصل الأديان ومنشئها ومقارنة بعضها ببعض . وهذا بلا شك يؤدى حتما الى القضاء على المهمة الأصلية التى من أجلها وجدت الأديان ، مهمة الارشاد والتأثير من طريق الوازع فى سلوك الأفراد .

على اننا ان قدمنا اليوم الى القراء كتاب «تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم من العصور الوسطى» فانما نقدمه لطبقة من الطبقات المستنيرة فى أنحاء الشرق العربى مرنت على مواجهة الحقائق وسكنت اليها وعرفت ان أفضل مايتصف به الانسان فى هذه الحياة من خلق ، هو البحث وراء الحقائق لذاتها والسكون اليها مهما كان فيها من المنافاة لما نشأ عليه المرء من التقاليد .

ولا ينبغى أن تمر بى هذه الفرصة دون أن أنبه على ان الاديان ذاتها انما كانت لتعرفنا الحقيقة من طريق ما . فالواح الوصايا العشرة التى نزلت على موسى وجرت عليها بقية الاديان وشرعتها للناس ؛ قد نزلت على قلب الانسان من قبل عهد موسى ومضى المشرعون والمصلحون يتبعون مبادئها قرونا قبل أن يعرف الانسان ماهو التنزيل . فانك تجد مثلا فى «كتاب الموتى» عند قدماء المصريين ألواحا كهذه الالواح عددها عشرة تماما . وتجد مايماثلها فى دين زرادشت ومانى وبوذا وكونفوشيوس

وعلى هذا فانى أعتقد اعتقاداً لايوهنه الشك باننا اذا أردنا بعزم صادق أن نؤيد الاديان وأن يكون لنا فى هذه الحياة عقائد صالحة لان تكون دستوراً قويما فى الحياة فلنبحث عن الحقائق ولنطرد الأوهام لتقوم الحياة الانسانية على أساس ثابت لايدخله الوهم ولاتعمل فيه يد التقاليد

اسماعيل مظهر